

الأبعاد الثقافية للحرب على سورية

□ مالك صقور

الحديث عن الأبعاد الثقافية للحرب على سورية، لا ينفصل - في رأيي - عن الحرب العسكرية، الاقتصادية، السياسية التي تدور رحاها الآن على الأرض السورية، وتزهق الأرواح، وتدمّر سورية تدميراً مبرمجاً، ممنهجاً، منظماً، طال البشر والشجر والحجر، وما زالت هذه الحرب تستنزف طاقات الشعب وتقوّض ما تبقى من البنية التحتية.

وإن تكن الحرب الاقتصادية قد أعلنت على سورية بالحصار الاقتصادي السياسي قبل أكثر من عقد؛ فإن الحرب الثقافية غير المعلنة قديمة على الثقافة العربية عموماً، وقد جاءت هذه الحرب تحت مسميات كثيرة، وعناوين مختلفة.

والحديث في هذا الموضوع، يتطلب العودة إلى الماضي البعيد والقريب، لمعرفة نشوء وتشكّل الأبعاد الثقافية وأشكالها في تتابعها الزمني عبر مراحل التاريخ.

جاءت كلمة (agircultura) باللاتينية أي الزراعة.

تطور مدلول هذه الكلمة من القرن السادس عشر لتفيد معنى مجازياً هو تنمية القدرات العقلية، ثم استخدمت بمعنى تنوير وثقافة. وهكذا انتقلت كلمة (cultura) من عالم الزراعة إلى عالم الفكر، وذلك بتأثير النهضة الأوروبية. ومن ثم صارت كلمة (ثقافة) تساوي كلمة (حضارة). ولقد عبّر ابن خلدون عن مدلول كلمة (حضارة)؛ مفرقاً بين الحضرة والبدو، تحت اسم (العمران البشري).

منذ أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي، بدأت كلمة (ثقافة) تروج في الخطاب العربي. يقول الجابري: "ومع ذلك فإنه لا بدّ من القول إن ما كان يشغل الفكر العربي في الخمسينيات والستينيات، ليس المعنى المعرفي الأكاديمي ولا المعنى الأنثروبولوجي لمفهوم الثقافة بقدر ما كان يشغله مفهوم آخر كان بروزه نتيجة لعمليات تصفية الاستعمار فيما أصبح يسمى منذ ذلك الوقت "العالم الثالث". فقصد بذلك مفهوم "الثقافة الوطنية" (2).

والمفهوم الصحيح للثقافة الوطنية، وفق الجابري، كان يُحدّد انطلاقاً من الصراع بين الثقافة الوطنية والثقافة الاستعمارية، إذ لم يكن ينظر لمفهوم الثقافة الوطنية من زاوية ما يحمله المثقفون من معارف وعلوم أو ما يكتبونه من بحوث ودراسات ومقالات وأدب، بل كان تحديده يتم ابتداءً من الوضعية الاجتماعية والتاريخية التي تعيشها شعوب العالم الثالث. من هنا، انبثق مفهوم (الثقافة

قبل العودة إلى الماضي، وعرض الموجز التاريخي، من المفيد أن نحدّد معنى كلمة "ثقافة"، لما لهذه الكلمة في الأذهان من دلالات ومفاهيمات مختلفة من خلال استخدامها في شتى مناحي الحياة. مع أن كلمة "ثقافة" حديثة العهد في حياتنا الفكرية، وهي جديدة على ثروتنا اللغوية، كما يقول محمد عابد الجابري: "آية ذلك: أن معاجمنا لا تعطينا عن أصل هذه الكلمة ومشتقاتها إلا هاتين الدالتين أو ما يشبههما: يقال ثقّف الولد، إذا صار حاذقاً... وثقّف الكلام: حدّقه وفهمه بسرعة".

ويقال كذلك: "ثقّف الرمح إذا قوّمه وسواه". يتابع الجابري قوله: "وهكذا نلاحظ أن معنى "الثقافة" عند أجدادنا العرب كان: الحذق والذكاء وسرعة الفهم، فهي من هذه الناحية خصلة عقلية وليست مفهوماً مجرداً. كما أن التثقيف يعني التقويم والتسوية، وهو خاص بالرمح والعود، ولم نعثر في تراثنا على ما يفيد امتداد هذا المعنى - معنى تثقيف الرمح - إلى الفكر أو الذهن، فالكلمة المستعملة في هذا الشأن هي: "التأديب"! (أدبه مؤدّب، الأدب) (1).

إذن، "الثقافة" في الاستخدام العربي، كلمة تمّ اشتقاقها للدلالة على المعنى المجازي لكلمة (CULTURA) اللاتينية التي تعني تجهيز التربة، والعناية بها: وهو اشتقاق موفق، على حد تعبير محمد عابد الجابري، خصوصاً، إذا لاحظنا ذلك التقارب بين المعنى الأصلي لكلمة الحذق والتسوية والمعنى الجديد الذي صيغت للدلالة عليه. ومن هنا،

- الثقافة الوطنية
- الثقافة العالمية
- الثقافة العربية
- ثقافة الفساد
- الثقافة الدينية
- الثقافة الزراعية
- الثقافة الصناعية
- ثقافة المقاومة
- ثقافة الإرهاب....إلخ...

بعد هذه المقدمة، أعود إلى الحرب على سورية، وإلى الأبعاد الثقافية البعيدة والقريبة.

ومتى لم يكن ثمة حرب على سورية؟

قبل ميلاد المسيح عليه السلام، كان يحكم العالم إمبراطوريتان: هما الفارسية والرومانية. وهاتان الإمبراطوريتان، كانتا تتحاربان على منطقتنا: (المشرق العربي). كانت الإمبراطورية الفارسية تبسط هيمنتها على الجزء الشرقي من المنطقة العربية: من حدود بلاد فارس إلى العراق، وحلفاؤهم المناذرة وعاصمتهم (الحيرة).

وكان الرومان يبسطون نفوذهم على القسم الغربي الذي يبدأ من حدود آسيا الصغرى، ويمتد جنوباً عبر سورية حتى فلسطين وحلفاؤهم الغساسنة، ومقرهم: دمشق. وبصرة الشام.

وكانت الصراعات تتشب بين الإمبراطوريتين، ويكون الثمن: دماً عربياً.

الوطنية) التي تعني نضال الشعوب المستعمرة من أجل سيادتها الوطنية وتحررها القومي.

وهذا لا يعني أن الثقافة الوطنية بديل أو شيء مقابل للثقافة الإنسانية، أو الفكر العالمي، إنها ليست البديل لا لهذا، ولا لذلك. وإنما الثقافة الوطنية مفهوم وُضِعَ في مقابل الثقافة الاستعمارية(3).

ومن المعروف، أن الاستعمار بكافة أشكاله، لا يسعى للسيطرة الاقتصادية، والهيمنة السياسية فحسب، بل يسعى لفرض ثقافته، وطمس معالم الثقافة الوطنية، ومن غير طمس الثقافة لا يستطيع المستعمر أن يفصل الشعب عن ماضيه، وعن حضارته، وإلغاء ذاكرته.

هنا، من هذا المفهوم، يختلط الثقافي بالسياسي بالاجتماعي بالاقتصادي، فلنقرأ التعريف الأعم والأشمل (للثقافة) حسب إعلان مكسيكو:

(إن الثقافة بمعناها الأوسع، هي مجموع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية الخاصة التي تميز مجتمعاً بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، والإنتاج الاقتصادي، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والأعراف والتقاليد والمعتقدات)(4).

هذا تعريف جامع شامل واسع، وقد تم بالإجماع عليه. هذا تعريف الثقافة بالمعنى الأوسع، لكن مع مرور الزمن، صارت كلمة ثقافة تستخدم (كمفهوم) بمدلولها الأضيق عند الحديث عن ظاهرة ما. كأن نقول:

الحروب الصليبية، واستمرت قرابة مئتي عام من سنة (1095م إلى 1291م).

ومنذ ذلك التاريخ البعيد، وحتى وقتنا هذا، لم تهدأ، ولم تتوقف الحروب على منطقتنا، ومنها على سورية، مروراً بالاحتلال العثماني، ثم الفرنسي، إلى زرع خلية سرطانية في قلب الأمة العربية، وتحتل جنوب سورية (فلسطين). لتبدأ مرحلة جديدة. فبعد نكبة فلسطين 1948 وتدايعات هذه النكبة، وبعد مرحلة النهوض القومي بعد ثورة 1952/ تموز في مصر، وبعد حرب 1967، ثم 1973، و1982، وحرب الإخوان المسلمين، وتدايعات الحرب الأهلية في لبنان، ثم حربي الخليج الأولى والثانية، واحتلال العراق قبل عقد، والحرب على سورية مستمرة بالسر والعلن.

تعود سورية اليوم، إلى الواجهة، وتعلن الحرب عليها، لكن بعنوان مختلف ومسمى جديد، بعد الحراك الذي جرى في مصر، وتونس وليبيا واليمن تحت يافطة (الجحيم العربي). وأعود إلى الأبعاد الثقافية البعيدة، ومنها:

1 - الاستشراق:

لن أتوقف عند معنى (الاستشراق) اللغوي، ودلالته، فأصبح معروفاً، وخاصة للمهتمين بالشأن الثقافي. والاستشراق ظاهرة استعمارية، شاء من شاء وأبى من أبى، والمتعمق في دراسة هذا (الاستشراق) سيدرك ذلك.

للاستشراق وجهان: ظاهر وباطن.

انقرط عقد التحالف الفارسي العربي، في معركة القادسية. كما انحسرت الإمبراطورية الرومانية في معركة اليرموك. والتي فيها اندحر الرومان وعبر هرقل أو نقفور عن حزنه قائلاً عندما غادر سورية: "وداعاً يا سورية، وداعاً لا لقاء بعده".

يذكر أنه عندما احتل الفرنسيون دمشق بعد معركة ميسلون، دخل غورو دمشق، وبحث عن قبر صلاح الدين الأيوبي، وركله قائلاً: "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، مذكراً بقول جده نقفور، وبهزيمة الصليبيين.

لكن الصراع بقي مستمراً، فبعد هزيمة الرومان في معركة اليرموك، انتقل الصراع من الرومان إلى الصراع مع بيزنطة التي تجاوز العرب والمسلمين من الشمال. وصارت بيزنطة تنظر بهلع وخوف وتوجس إلى قوة المسلمين، باعتبارها وريثة الإمبراطورية الرومانية، واستمرت الحروب أربعة قرون، اشتد سعيها في أيام الإمارة الحمدانية بقيادة الأمير العربي سيف الدولة الحمداني الذي يُسجل له التاريخ صفحات ناصعة في تلك الحروب. وقد خلد شاعر العرب الأكبر أبو الطيب المتنبي بعض تلك الحروب بقصائده، وأشار إلى بعضها أبو تمام أيضاً. وقد أطلق على تلك الحروب "حرب الثغور".

في تلك الفترة انطلق الرهبان يجوبون أوروبا من أدناها إلى أقصاها، ليؤلبوا الناس، ويحشدوا الحشود، ويجمعوا الأموال مستثيرين الحماس الديني، داعين إلى استرجاع الأماكن المقدسة. وهكذا بدأت

ويجدد الإمارات الصليبية التي دامت قرابة مئتي عام.

كان فانتور داهية، محنكاً، ووصفوه بشيطان نابليون ومستشاره، وخليله، ونديمه، لا يفارقه، يقدم له النصيح والإرشاد. وهذا الذي أغرى نابليون وزين له غزو مصر والشرق.

أقنع فانتور نابليون، بأن يعلن إسلامه، ويلبس العمامة، ويرتدي الزي المصري، وأن يشارك في المناسبات الدينية، وأن نابليون قد جاء إلى مصر ليس غازياً، بل ليخلص المصريين من حكم المماليك الظالمين.

2 - ماسينيون:

مستشرق فرنسي أيضاً. استطاع هذا المستشرق أن يتسلل إلى الإسلام. درس في الجامع الأزهر، ارتدى العمامة والجبّة إمعاناً في التضليل. وإن كان قد وضع دراسة عن (الحلاج)، فليس حباً بالحلاج، ولا بالتصوّف، بل كان مثل أكثر المستشرقين الذين اهتموا بظاهرة التصوّف من أجل الفتن، وزرع الشقاق بين المسلمين.

3 - لامنس:

هنري لامنس، مستشرق بلجيكي. راهب شديد التعصب ضد الإسلام. كتب عن شخصيات إسلامية. فشوّ هذه الشخصيات، وافترى على الإسلام. ولم يستطع كما غيره؛ إخفاء حقه على الإسلام والدين الحنيف. وهو الذي طالب بأن يتجه الشعر العربي إلى الغموض، وكسر الوزن والقافية.

– **الظاهر:** دراسة بلاد المشرق. دراسة شاملة: تاريخية، جغرافية، اقتصادية، سياسية، ثقافية. لكن تم التركيز فيها على الثقافة.

– **الباطن:** مشروع استعماري بحث، بواجهة ثقافية، لفهم جوهر بلدان المشرق، للتمكن من السيطرة عليها، واحتلالها، واستيعاب ثقافتها، بعد نهب مخطوطاتها، وإعادة إلينا مشوّهة، والتشكيك فيها. وهذا ما حصل فعلاً.

وللإنصاف والموضوعية، أقول: إن أقلية نادرة من المستشرقين أنصفوا الثقافة العربية بدراساتهم. لكن النادر لا يذكر كما يقولون، ولا بدّ من التفريق بين الاستشراق الغربي – الاستعماري – الامبريالي، وبين الاستشراق الروسي الذي حمل المعنى الإيجابي، ولم يزور الحقيقة من دراسة الثقافة العربية.

أذكر بعض المستشرقين:

1 - فانتور:

بقي فانتور أربعين عاماً يتجول في الديار الإسلامية، يبحث، ويسجل، ويصور، ويدرس ويخطط. وفي الوقت المناسب، ظهر فجأة في طليعة الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت الذي احتل مصر. كما ويذكر، أن نابليون الذي دوّخ أوروبا، وأذل ملوكها، وأمراءها، كان تلميذاً نجيباً وأداة طيعة بيد هذا المستشرق، الذي قاده صاعراً ليقوم بمغامرته بغزو الشرق، ليعيد مجد أسلافه المضاع،

4 - سافستر دوساسي:

مستشرق فرنسي: أتقن اللغة العربية، والسريانية، والكلدانية ثم العبرانية. لكن اللغة العربية هي التي فتحت له أبواب الشرق. بدأ بتعليم اللغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية. ثم عين مديراً لهذه المدرسة، ثم أستاذاً في كوليج دوفرانس، ثم شغل منصب المستشرق المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية. كانت مهمته في الوزارة ترجمة نشرات الجيش الفرنسي، وبيانات نابليون المحرّضة على استئثار العصبية الإسلامية ضد الأرثوذكسية الروسية، وعندما احتلت فرنسا الجزائر، ترجم دوساسي البيان الموجّه للجزائريين عام 1830.

والقائمة تطول، إذا ما استعرضت أسماء مئات المستشرقين الذين نهبوا المخطوطات العربية، وأعادوها إلينا مشوّهة، بعد التشكيك بالكثير من محتوياتها، ثم عملوا جواسيس لبلدانهم تمهيداً لاحتلال هذا الشرق.

في كتابه الاستشراق، يقول إدوارد سعيد: "إن تجاربي الشخصية لهذه القضايا هي التي دفعتني جزئياً لكتابة هذا الكتاب. فحياة الفلسطيني العربي في الغرب، وبشكل خاص، في الولايات المتحدة، تبعث اليأس في النفس. إذ يوجد هنا إجماع كلي تقريباً على أن (الفلسطيني) غير موجود سياسياً. وحين يتم التسامح يُعترف بوجوده، بوصفه إما أمراً مزعجاً، أو شرقياً. وإن الشبكة العنكبوتية من العرقية، والتنميط الثقافي، والإمبريالية السياسية والعقائدية التي تقضي على إنسانية

الإنسان، والتي تأسر العربي أو المسلم، لقوية جداً بالفعل. وهذه الشبكة هي ما كان لكل فلسطيني، أن يشعر به بوصفها قَدَرَه المُعاقب بفرادة. ولقد زاد الأمور سوءاً بالنسبة إليه أنه لاحظ أنه ما من شخص منشبك جامعياً، في الشرق الأدنى - أي، ما من مستشرق وجد هويته أبدأً في الولايات المتحدة ثقافياً وسياسياً برغبة كلية بهوية العرب. كما حدث لتوحيد لهوية الأمريكي مع الصهيونية".

كان لا بدّ من هذا المقبوس الطويل، لأبينّ عداء الاستشراق للعرب، وارتباطهم بالصهيونية.

يستشهد إدوارد سعيد بأقوال كثيرين من المستشرقين الذين يؤكّدون، أن الشرقيين، يفتقرون إلى الدقّة والمحاكمة العقلية، والمنطق، عكس الأوروبي، الذي يتمتع بمحاكمة عقلية دقيقة، وتقريره للحقائق خال من أي التباس، وهو منطقي مطبوع".

ويتابع إدوارد سعيد قائلاً:

"ومنذ الآن يظهر الشرقيون والعرب سذجاً. غافلين، محرومين من الحيوية والقدرة على المبادرة، مجبولين على حب (الإطراء الباذخ) والدسيسة والدهاء والقسوة على الحيوانات. والشرقيون لا يستطيعون السير على الطريق أو الرصيف (ففقولهم الفوضوية تعجز عن فهم ما يدركه الأوروبي البارِع بصورة فورية. وهو أن الطرقات والأرصفة شقّت وبنيت لكي يُمشى عليها).

إن (النكرات) التي ذكرها المترجم، احتلت الساحات الإعلامية والثقافية، ولأن فاقد الشيء لا يعطيه، فإن هذه (النكرات) شوهت المشهد الثقافي، ولعبت الدور المضلل في الإعلام. فالفضائيات بأنواعها، قدمت الرخيص في الموسيقى، وقدمت برامج لا علاقة لها بالثقافة، وهي من النوع التي تسطح العلم والمعرفة، وتُخدر المتلقي، خاصة، من فئة الشباب.

تزامن صدور هذا الكتاب، مع صدور كتاب صموئيل هنتغتون (صراع الحضارات) بعد حرب الخليج الثانية. والحقيقة، أن تقديم مثل هذا الكتاب في حينه، كانت نبوءة، وقراءة صحيحة للثقافة والإمبريالية، في ظل التحوّلات والتغيرات التي جرت في العالم بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وانفراد الإمبريالية الأمريكية، بمقدرات العالم.

فاستطاعت أن توظف آخر ابتكارات العلم والاتصالات، وتطور الحاسوب، والشبكة العنكبوتية، هذه المنظومة القتالة الموجهة أصلاً إلى شعوب (العالم الثالث). وبدلت الإمبريالية جلدها، تحت مسمى جديد هو: العولمة أو النظام العالمي الجديد. فانتشرت الفضائيات بالآلاف، تبث كافة أنواع السموم، وقد لعبت بعض هذه الفضائيات دوراً قذراً، لا بل كان حرباً إعلامية ونفسية في سفك الدم السوري. بدعمها وتوجيهها للإرهاب. ومن أهم مهام نظام التضليل العالمي، وشبكاته السرطانية وفضائياته التي لا تعد ولا تحصى هي:

والشرقيون عريقون في الكذب، وهم كسالى، وسيئو الظن وهم في كل شيء على طرف نقيض من العرق الأنغلو ساكسوني في وضوحه، ومباشرته، ونبله" (5).

باختصار أقول: إن الاستشراق هو غزو ثقافي مهّد للغزو العسكري والاستيطاني. واحتلال العقل قبل الأرض.

2 - نظام التضليل العالمي:

صدر في دمشق عام 1994 كتاب بعنوان: (نظام التضليل العالمي). من ترجمة غازي أبو عقل. والكتاب مجموعة مقالات لكتاب مختلفين من أوروبا.

اختار العنوان المترجم بناء على مضمون المقالات والدراسات التي قام اللواء غازي باختيارها بعناية، وترجمتها بدقة، وهي عن دور الإعلام الغربي، خاصة، بعد انفجار تقانات المعلوماتية وتحوّل العالم إلى (قرية) صغيرة، يقول المترجم في مقدمته للكتاب: "يحاول هذا الكتاب جلاء بعض جوانب تركيبة المنظومة العالمية التي تتولى في عصرنا هذا مهام التوجيه والإعلام والتثقيف، من أجل صنع فردوس ما - لبعضهم - على هذا الكوكب الحائر". ويتابع قائلاً: "كان من يظهر اسمه في الجريدة فيما مضى يصبح شيئاً ما في مجتمعه. وما كان بوسع أي جريدة إتاحة مثل هذه الفرصة إلا لعدد لا يكاد يذكر من الناس. بينما تتمتع جرائد اليوم المصوّرة والمتلفزة بمقدرة هائلة تتيح لها وضع "نكرات" العالم كله على صدر صفحاتها الأولى" (6)

- تغيب العقل:

إن انتشار الفضائيات العالمية والعربية منها تحديداً، بات يشكلّ الجزء الأساسي والرئيس في المشهد الإعلامي والثقافي، للمجتمعات العربية كافة، إذ دخلت كل بيت، واستحوذت على الاهتمام، وهي تبث على مدى أربع وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة، واستطاعت أن تدخل مفهومات جديدة، بقوالب متنوعة، على عقول الشباب، يقول د. سليمان إبراهيم العسكري: "أي متابع لما يبث عبر شاشات الفضائيات العربية، بإمكانه أن يدرك، وربما دون جهد كبير، مدى الفجوة الواسعة بين ما تقدمه هذه القنوات، وبين الطموح العربي اليوم في تحقيق التنمية وبناء أجيال من الشباب الواعي المثقف المسلح بالمعارف والعلوم الحديثة، المعتز بقيمه الأصيلة، المدرك لحقائق الأمور. إن الأغلبية العظمى مما تبثه شاشات القنوات الفضائية العربية لا تعدو كونها مواد تترى بالصخب والبهارج الشكلية، على حساب المضمون". ويستطرد العسكري قائلاً: "يستوي في ذلك أن تكون المادة المقدمة برنامجاً من برامج المنوعات أو المسابقات الخفيفة التي أصبحت بمنزلة طوفان تتسابق الشاشات في أن تغرق بها مشاهديها، أو برنامجاً حوارياً يبحث عن الإثارة والصخب بدلاً من محاولة تقديم أفكار عميقة ومختلفة أو برامج الشعوذة والخرافة كتفسير الأحلام وقراءة الطالع والأبراج وبرامج الجن والسحرا". ويؤكد العسكري قائلاً: "وهو ما يعني أن هذه المواد التي تفيض بها شاشات

قنوات الفضائيات العربية، في أغليبتها العظمى، هي في النهاية، لا تبغى سوى إحداث حالة من التغيب العقلي للشباب والنشء، بل وللجمهور العريض عن واقعه، وعن كل سبل الإعلام الحقيقي الذي يبتغي دعم العوامل الثقافية البناءة"(7).

تغيب العقل!! نعم، وقد نجحت هذه الفضائيات في حرف اهتمام الشباب العربي عن أهم واجباته، وعن واقعه، وتوجيه اهتمامه إلى قضايا أخرى ذاتية، بعيدة عن القيم والأخلاق، والفرق في الإسفاف والابتذال، وإيقاظ الغرائز. فلم تعد قضايا الوطن مهمة، ولا القضايا القومية لها شأن، وشاعت أفكار كثيرة، مثل: إن فلسطين تخلق عنها أهلوها، وأن إسرائيل أمر واقع، وأن العدو هو إيران... إلخ..

3 - صدام الحضارات:

كتب صموئيل هنتغتون في صيف 1993، مقالاً بعنوان (صدام الحضارات)، بعد زوال الاتحاد السوفييتي، أثار المقال ردود فعل مختلفة، ونقاشات واسعة جداً في مختلف البلدان، وكانت ردود أفعال الناس هذه على حد تعبير هنتغتون، بين مندهشين، ومعجبين، وهائجين، وخائفين، وحائرين من الطرح الذي طرحه. فما كان منه إلا وسّع المقال إلى كتاب ضخم، وعنوان فرعي: (وإعادة بناء النظام العالمي).

حدّد هنتغتون آليات خطابه في كتابه (صدام الحضارات) بالنقاط التالية:
أولاً: الديانة هي المعيار للتمييز بين الحضارات.

- حدود الإسلام الدامية.

ومما يثير الدهشة في تصنيف هنتغتون وتحليله، هو عدم ذكر الديانة اليهودية، على الرغم من تأكيده بأن (الديانة) عنصر أساسي للتمييز بين الحضارات. ولم يُشر إلى الصراع بين الإسلام واليهودية. وبين اليهودية والمسيحية. والأسوأ من هذا، لم يستخدم الديانة كمعيار للتصنيف إلا عندما جاء ذكر الحضارة الإسلامية. ولم يتطرق إلى الحضارة العربية، بل ركّز على (المملكة السعودية) "الإسلامية" - كمركز هام للإسلام. وعن قادم الأيام، يقول: "حرب عالمية بين الدول الأساسية للحضارات العالمية الكبرى بعيدة الاحتمال، ولكنها ليست مستحيلة. مثل هذه الحرب يمكن أن تكون نتيجة لتفاقم حرب خط الصدع بين جماعات من حضارات مختلفة، والأكثر احتمالاً تتضمن المسلمين من جانب وغير المسلمين من جانب آخر. مصدر أكثر خطورة للحرب الحضاراتية هو تغيّر توازن القوى بين الحضارات ودولها الأساسية إذا استمر نهوض الصين وتزايد التأكد على هذا اللاعب الأكبر في تاريخ الإنسانية، سيمارس ضغطاً وتوتراً شديداً على الاستقرار الدولي في أوائل القرن الواحد والعشرين. انبثاق الصين كقوة مهيمنة في الشرق وجنوب شرق آسيا".

لم يذكر المؤلف روسيا، لأن روسيا في أثناء كتابة كتابه، كانت تعاني الويلات، والتفكك، والمفايات، والجوع والفقر.

لكنه يعود إلى موضوع الحرب فيقول: "يمكن أن تتطور حرب بين الصين والولايات

ثانياً: حتمية صراع الحضارات.

ثالثاً: الصراعات المقبلة ستكون بين الغرب والحضارتين الإسلامية والحضارة الكونفوشوسية أو الحضارة الصينية.

رابعاً: الحضارة تشكل السياسة والاقتصاد.

كما حدّد هنتغتون الحضارات في القارات الخمس على الشكل التالي:

1 - الحضارة الغربية.

2 - الحضارة الأرثوذكسية.

3 - الحضارة البوذية.

4 - حضارة أمريكا اللاتينية.

5 - الحضارة الإفريقية.

6 - الحضارة الهندوسية.

7 - الحضارة الإسلامية.

8 - الحضارة الكونفوشوسية أو الصينية.

بُعِد انهيار الاتحاد السوفييتي، أعلنت إذاعة لندن بتاريخ 3 شباط 1991: "لقد كان أمام الغرب عدوان اثنان: الشيوعية والإسلام. وقد انهارت الشيوعية دون أن يقدم الغرب خسائر تذكر، ويجتمع اليوم كل من الغرب والشرق في خنادق الكاثوليك والأرثوذكسية لمجابهة العدو المتبقي الواحد".

لذا نجد أن مؤلف (صدام الحضارات) يركّز على (الإسلام).

وقد خصص عنواناً في كل فصل للإسلام:

- الانبعاث الإسلامي.

- الإسلام: وعي بلا تماسك.

- الإسلام والغرب.

أقصى مداه، في الولايات المتحدة الأمريكية، فكيف حال شعوب "العالم الثالث"، وخاصة ما جرى في هذه الحرب على سورية خلال سنتين وشهرين، يقول المؤلف: "يتمثل أعظم انتصار أحرزه التضليل الإعلامي، وهو ما يتجلى في أوضح صورة داخل الولايات المتحدة، في الاستفادة من الظروف التاريخية الخاصة للتطور الغربي من أجل تكريس تعريف محدد للحرية تمت صياغته في عبارات تتسم بالنزعة الفردية، وهو ما يمكن المفهوم من أداء وظيفة مزدوجة. فهو يحمي حيازة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج من ناحية، وهو يطرح نفسه في الوقت ذاته بوصفه حارساً لرفاهية الفرد موحياً بأن هذه الأخيرة لا يمكن بلوغها إلا في وجود الأولى، وفوق هذا المعنى أو التفسير المركزي يتم تشييد هيكل كامل من التضليل الإعلامي"، فسيطرة النخبة حسبما يقول شيللر، تقتضي تجاهل أو تحريف الواقع الاجتماعي.(9)

5 - التلاعب بالوعي:

صدر حديثاً كتاب (التلاعب بالوعي) عن وزارة الثقافة في دمشق للكاتب الروسي: سيرجي قره - مورزا. ترجمة عياد عيد. يتقاطع كتاب (التلاعب بالوعي) مع كتاب (المتلاعبون بالعقول).

في الكثير من الأفكار والموضوعات، في حين يركز شيللر على أميركا، بينما يضرب سيرجي قره - مورزا أمثلة من أنحاء العالم، ومن التاريخ، والأدب، ويسلط الضوء

المتحدة، افترض أن سنة 2010 سنة الحرب. القوات الأمريكية، خارج كوريا التي أعيد توحيدها"(8).

لم تتوحد كوريا الشمالية مع الجنوبية. ولم تحصل حرب عسكرية بين أميركا والصين، لكنها حرب اقتصادية سياسية. ولم تتحقق نبوءة هنتغتون على العكس، اهتزت أميركا وحلفاؤها من تهديد كوريا الشمالية. لا يمكن تنفيذ كتاب (صدام الحضارات) لأن الحيز لا يسمح، وإنما جئت على ذكره، لأنه في رأيي، يشكل جزءاً هاماً من الحرب على سورية.

أولاً: لاستهداف الحضارة العربية - الإسلامية، فيها، كما تم استهداف العراق. ثانياً: استغلال (الإسلام)، والإسلاميين، وكل أصناف ما يطلقون على أنفسهم أصوليين، سلفيين، قاعدة، تكفيريين. إلخ.

ثالثاً: وكما أثبتت الوقائع، أن سورية حامية للمشروع القومي العربي، ومشروع المقاومة، وحامية للمقاومة وفلسطين.

4 - المتلاعبون بالعقول:

ليس مصادفة، أن يضع هيرت أ. شيللر، عنواناً فرعياً لكتابه: (المتلاعبون بالعقول): (كيف يجذب محرّكو الدمى الكبار في السياسة والإعلان ووسائل الاتصال الجماهيري خيوط الرأي العام؟)، وليس مصادفة، أن يستهل شيللر كتابه الهام هذا بالفصل الأول: (التضليل الإعلامي والوعي المقلب). وإذا كان التضليل الإعلامي قد بلغ

حشد الشباب الرديكالي من طبقات المجتمع المنبوذة وتوجيه طاقاتهم نحو أهداف مزيفة" (10).

إن من يقرأ "نظام التضليل العالمي" و"المتلاعبون بالعقول" و"التلاعب بالوعي". يدرك حقيقة التهيج الإعلامي وحجمه وسطوة المحطات الفضائية التي أشرف عليها ووجهها علماء نفس وعلماء اجتماع، وشكلت حرباً نفسية، أثرت في عقول الكثيرين حتى من المثقفين، داخل سورية وخارجها، هذه المحطات، زوّرت الحقائق والوقائع وشوهتها، ثم راحت "تفبرك" المشاهد، والأفلام، والأخبار الملفقة، وأصبحت العامل الأول في سفك الدم السوري، وتوجيه الإرهابيين على الأرض السورية.

6 - الخطاب الديني:

7 لا إكراه في الدين

يقول الله في كتابه العزيز. وجاء في الحديث الشريف، يقول النبي العربي (ص): (كل مولود على الفطرة. فأبواه: يهودانه، أو ينصرّانه، أو يُسلمانه، أو يمجّسانه).

فبعد الآية الكريمة: 7 لا إكراه في الدين 6؛ وبعد قول رسول الله، كيف نحمل (الإنسان) تبعية انتمائه الطائفي أو المذهبي؟ فلم يختَر أحد منا دينه، ولا مذهبه، حتى ولا اسمه.

البعد الديني متجذر في خطابنا الثقافي، لا بل متجذر في ثقافتنا، المسيحية كانت، أم الإسلامية. لكن المقصود هنا، الآن، هو: الإسلام.

على تفكيك الاتحاد السوفييتي، وكيف بدأت نواة ((البيروسترويك)) من السبعينيات. وكيف تم التلاعب بالوعي، ويخصص فصلاً (للتلفزيون)، يقول: "حين يسمع إنسان يحترم نفسه عن التلاعب بوعيه فإنه يظن أنه هو تحديداً لا يمكن أن ينخدع، فهو فرد، وذرة حرة من البشرية، كيف يمكن التأثير فيه؟ الذرة ذرة، لكن تبين أن بالإمكان شطرها، وإن كانت كلمة ذرة (آتوم) بحد ذاتها تعني غير القابل للانقسام".

ويقول: "تنص إحدى أهم قواعد التلاعب بالوعي على أن النجاح مرتبط بالمقدرة على عزل المرسل إليه (المتلقي) عزلاً تاماً عن التأثير الجانبي. الحال المثلى لتحقيق ذلك في كلية التأثير - أي انتقاء وجود مصادر معلومات وآراء بديلة غير خاضعة للمراقبة. لا يتوافق التلاعب مع الحوار والنقاشات العامة. لذلك، شكلت البيروسترويك في الاتحاد السوفييتي سابقة لا مثيل لها من حيث فاعلية برنامج التلاعب. كانت وسائل الإعلام كلها في يد مركز واحد خاضع لبرنامج وحيد (كلية الرقابة على الصحافة في أعوام البيروسترويك كانت أشمل بما لا يقاس منها في السنوات الماضية".

وتحت عنوان: خوف الإرهاب. كتب سيرجي قره - مورزا: "للإرهاب أساس ثقافي هو العدمية - أي رفض الأخلاق العامة. إنه نتاج الغرب الذي أعلن "حرب الجميع ضد الجميع" قاعدة في الحياة. صار الإرهاب أسلوباً معتمداً للهيمنة.

إن هذا أحد أقوى وسائل التلاعب بالوعي وتشتيت انتباه المجتمع. فالإرهاب أداة فاعلة في

لن أتوقف عند التفاصيل الكثيرة، لأن الجميع يعرف تاريخ الدعوة الإسلامية، وسيرتها، وانتصارها. كذلك دستور الإسلام - القرآن، والسنة النبوية، أكثر مني.

لكن أتوقف عند الآية الكريمة، من سورة المائدة:

7 اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً 6 صدق الله العظيم.

هذه الآية، واضحة، ولا تحتاج إلى شرح، ولا تفسير ولا إلى تأويل. ومع هذا، صار الإسلام ثلاث وسبعين فرقة. وأربعة مذاهب. وكما قلت، لا أريد التوقف عند التفاصيل، ولا أريد الخوض في مضمار الدين، إلا ما يخص من وجهة نظري، البعد الثقافي في الخطاب الديني، وتأثيره واستغلاله في هذه الحرب الظالمة على سورية. وفيما يخص أمراً ملحاً ومحددًا هو: **التكفير**. بهذا الصدد، يقول الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر، في مقدمته لكتاب (إسلام بلا مذاهب) لمؤلفه مصطفى الشكعة: "ولقد فهم المسلمون الأولون روح هذا الدين الحنيف، واختلفوا في فهم نص من كتاب الله أو سنة رسول الله. ولكنهم في هذا الخلاف، كانوا متحدين في المبادئ والغايات. لم يكفر بعضهم بعضاً. بل كانوا يداً واحدة على من عاداهم. ثم خلف من بعدهم خلف جعلوا دينهم لأهوائهم. فتمزقت الأمة إلى شيع وأحزاب ومذاهب وعصبية، واستباح بعضهم دماء بعض، وكان بأسهم شديداً. فطمع فيهم من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه، فذهبت ريحهم

وتجرأ عليهم أعداؤهم. وانتقصوا بلادهم من أطرافها، كل هذا، ودعاة الفرقة سادرون في غيهم ماضون في طريقهم لا يدفعهم إلى هذا الطريق الشائك إلا أحد أمرين: إما الجهل بمبادئ الإسلام الصحيح، أو الكيد لهذا الدين الحنيف". ويتابع شلتوت قوله: "ولقد استغل المستعمرون أسباب التفرقة بين المسلمين أسوأ استغلال فراحوا يبعثون من قبور التاريخ أسباب العداوة والبغضاء وينفخون في نار قد خمد أوارها وانطفأ لهيبها" (11).

لقد أصاب الشيخ محمود شلتوت كبد الحقيقة، إذ أشار إلى موطن الوجد: أولاً: **التكفير**. والثاني: **المستعمرون** هم من ينفخ في نار خمد أوارها وسبق أن أشرت إلى ذلك عند الحديث عن الاستشراق.

وعند ذكر التكفير، تبرز البدعة الوهابية، التي كان لها اليد الطولى في هذه الحرب. ولقد تحدثت عن (الوهابية) في محاضرة سابقة: نشأتها، سيرورتها، أخطارها، وكيف تمكنت وزارة المستعمرات البريطانية من إرسال جاسوس هو جيفري همفر، وقد وجد ضالته في محمد بن عبد الوهاب، الذي كان عنده في الأساس استعداد، فجثته، بعد أن غسل دماغه، بالمال، والخمرة، والنساء، وهنا، سأذكر بدستور الوهابية الذي هو بالأصل مضمون كتاب: **كيف نحطم الإسلام**، الصادر عن وزارة المستعمرات البريطانية. وألخص بعضاً مما ورد فيه:

1 - فمن نقاط الضعف فيهم. وهو يقصد العرب والمسلمين:

4 - تقوية الإشاعات، باحتقار المرأة، (الرجال قوامون على النساء).

5 - تقوية ديكتاتورية الحكام على أنهم ظل الله على الأرض.

كما أوصى كتاب (كيف نحطم الإسلام):

على:

1 - لزوم إحياء النعرات القومية، الإقليمية، اللونية، العرقية، المذهبية، العشائرية، ومحاولة رجوع المسلمين إلى الحضارات المندثرة: كإحياء الفرعونية في مصر، الثوية في بلاد الفرس، البابلية في العراق. الفينيقية في لبنان.

2 - كما يجب إشاعة الأمور التالية:

- الخمر

- القمار

- البغاء

- أكل لحم الخنزير إن جهراً أو سراً.

وشدّد الكتاب بلزوم التعاون الوثيق مع اليهود، والمجوس والصابئة، الذين يسكنون في بلاد الإسلام.

كما وأوصى الكتاب بنشر (الريا) لهدم الاقتصاد الوطني، والتشجيع على خرق قوانين القرآن، وأحكامه، وآياته.

والعمل على:

- إضعاف صلة المسلمين بالعلماء بالصاق التهم بهم. وإدخال العملاء في زي العلماء.

— صرف المسلمين عن العبادة، والتشكيك بها تحت ذريعة (إن الله غني عن العالمين) ..

- الاختلاف بين السنّة والشيعة.

- الاختلاف بين الحكام والشعوب.

- الاختلاف بين الفرس والأتراك.

- الاختلاف بين العشائر.

- الاختلاف بين العلماء والحكومات.

2 - ومن نقاط الضعف فيهم: الجهل

والأمية.

- ومن نقاط الضعف فيهم: خمول الروح،

ذبول المعرفة، فقدان الوعي.

- ومن نقاط الضعف فيهم: ترك الدنيا،

والتعلق بالآخرة.

- ومن نقاط الضعف فيهم: ديكتاتورية

الحكام والاستبداد الشامل.

- ومن نقاط الضعف فيهم: عدم أمان

الطرق بسبب قطاع الطرق.

- ومن نقاط الضعف فيهم: خراب البلاد

ويباب الصحارى وانسداد الأنهار.

- ومن نقاط الضعف فيهم: الفوضى في

كل شؤون الإدارة في البلاد.

لذلك يجب العمل على:

1 - توسيع الاختلافات وتزكيته بسوء الظن بين الفئات المتنازعة.

ونشر الكتب التي تطعن ببعضها. وبذل المال الكافي في سبيل التخريب.

2 - تكريس الجهل، وعدم فتح المدارس، وإحراق ما يمكن إحراقه من الكتب.

3 - الإبقاء على حالة اللاوعي، بتزيين الجنة لهم.

ثمانينيات القرن الماضي، ومنها كتاب: (قس ونبي).

واعتقد أن الكثيرين يذكرون هذا الكتاب، ويذكرون الهدف منه، وهو التشكيك بالرسالة الإسلامية، والطعن بشخصية الرسول الأعظم.

ويا للأسف، لقد وجد كتاب (قس ونبي) رواجاً كبيراً، وانتشاراً واسعاً، كما وجد من آمن به، وقد خُذع من خدع، وفي الوقت نفسه، تصدى له كثيرون.

ومنهم المحامي الأستاذ أحمد عمران الزاوي، في كتابه "الحقيقة الصعبة في الميزان".

بعد (قس ونبي)، صدر كتاب (آيات شيطانية) لسليمان رشدي، وكان أقطع من الأول، إذ تناول الرسول الأعظم، وزوجاته، بوصف فاجر، لا يمكن لإنسان عادي أن يقوم بتلك الأعمال، فكيف بسيد الأنبياء. وذلك كله كان تمهيداً للنيل من الرسالة الإسلامية، والتشكيك بالدين الحنيف، وصولاً إلى **التكفير**. وقد استطاعوا بواسطة تنظيم (القاعدة)، والمنظمات الإرهابية الأخرى، كالسلفية والأصولية، وجبهة النصرة، أن يسيطروا على عقول الشباب، وأن يجندوا الآلاف بحجة (الجهاد).

7 - التفكير في زمن التكفير:

يقول د. نصر حامد أبو زيد في مقدمة كتاب: (التفكير في زمن التكفير): "ومن المخجل أن يوصف بالكفر من يحاول ممارسة

— يجب هدم الأضرحة والقبور، والاستخفاف بقبر النبي والصحابة.

- الطعن في آل البيت. والشك في انتسابهم للرسول. والعمل على تلبيس غير آل البيت بالعمامة السوداء، والخضراء، كي يضيع نسب آل الرسول.

- التشكيك بالقرآن، ونشر قرآن مزيف. (وهذا ما فعلته السعودية).

- يجب حذف الآيات التي تمس اليهود. هذا هو جوهر الوهابية، وهذا هو غيض من فيض من كتاب (كيف نحطم الإسلام).

وبالعودة إلى كتاب تاريخ آل سعود للشهيد ناصر السعيد يعرف القارئ كل شيء عن اليهود في السعودية، وعن الوهابية، فقد نشرت جريدة (الكون) في عددها الصادر بتاريخ 1925/12/3، في الصفحة الأولى، وبالمناشيت العريضة: آل سعود يدمرون أضرحة الصحابة وتحتة عنوان فرعي: عبد العزيز يتظاهر بالاعتذار ويتهم رجاله.

إن المتابع، والمهتم بالشأن العام، الثقافى منه والسياسي والديني لا بدّ أنه أدرك أن ثمانين بالمئة، مما جرى ويجري في سورية من أفعال الوهابية التكفيرية، ولا علاقة لما جرى بـ "الثورة"، ولا الإصلاح، ولا الديمقراطية إذ أصبح التخريب، ثم التخريب، حتى إسقاط الدولة، وإفقار الشعب. هو الهدف.

تنفيذاً لما تقدم من تعليمات كتاب: (كيف نحطم الإسلام)، صدر في سلسلة الحقيقة الصعبة، تحت اسم مستعار هو أبو موسى الحريري. في أواخر سبعينيات ومطلع

اسمها رسمياً "جمعية الإخوان المسلمين" (13). يذكر حسن البنا في مذكرات الدعوة والداعية أنه استلم هبة مالية كبيرة قدرها 500 جنيه مصري من الإدارة الإنكليزية لقناة السويس لاستكمال بناء مقر الإخوان (14).

وهذا ما أثار لغطاً في الإسماعيلية، فاتهم الإخوان بأنهم يبنون المسجد بـ"مال الخواجات" لكن البنا تصدى لذلك مدعياً أن هذا فقه أعوج. ولينفي حسن البنا تعامله مع الإنكليز. إذ تمتع بدهاء سياسي وحنكة براغماتية، برّر قبوله الهبة المالية من الإنكليز "إنه مال مصري اغتصبه الخواجات".

يمكن تقسيم تطور جماعة الإخوان إبان إمامة مؤسسها حسن البنا من عام 1928 إلى عام 1949 إلى ثلاث مراحل متصلة ومتداخلة هي: مرحلة الدعوة والتبليغ 1932 - 1939، ومرحلة المؤسسة والتسييس 1939 - 1945، مرحلة استكمال البنى التنظيمية، وتكوين الجهاز الخاص والتحول إلى تنظيم عالمي.

مرحلة المواجهة 1945 - 1949، التي انتهت بحل الجماعة في مصر ومصادرة ممتلكاتها، واعتقال كوادرها، واغتيال المؤسس حسن البنا في 12 شباط 1949.

بعد انتصار ثورة تموز 1952، كانت علاقة جماعة الإخوان مع الرئيس جمال عبد الناصر بين مدّ وجزر، حتى حادثة المنشية الشهيرة: بينما كان عبد الناصر يلقي في 26 تشرين أول عام 1954 خطاباً في الإسكندرية بالمنشية يعلن فيه اكتمال الكفاح الوطني بتوقيع اتفاقية الجلاء، تم إطلاق الرصاص

الفكر، وأن يكون "التكفير هو عقاب التفكير". هو مخجل في أي مجتمع وفي أي سلطة وفي أي لحظة تاريخية، وهو كارثة في "جامعة القاهرة" في العقد الأخير من القرن العشرين.

يعرض نصر حامد أبو زيد في كتابه هذا، تحليلاً مفصلاً لكل الاتهامات التي قيلت هجومياً عليه وعلى منهجه كباحث. بعدما حكم عليه التكفيريون بالطلاق من زوجته، فاضطر للهجرة، وربما كانوا هم سبب موته.

8 - الإسلام السياسي:

يطول الحديث جداً، إذا ما تحدثت عن الإسلام السياسي، وخاصة عن حركة الإخوان المسلمين التي تشكلت في آذار 1928 كردّ مباشر على إسقاط الخلافة وتقدم العلمانية. فإجهاز تركيا الكمالية على مؤسسة الخلافة في 13 آذار 1924 وشروعها بعلمنة راديكالية حاسمة للدولة. مفتاح تفسير نشأة الحركة الإسلامية المعاصرة (12).

النواة الأولى لجماعة الإخوان المسلمين كانت في بلدة الإسماعيلية في مصر على يد الشاب حسن البنا الذي عين معلماً للغة العربية في مدرسة الإسماعيلية الابتدائية، وما إن التف حوله ستة من "المريدين" حتى شكل منهم في آذار 1928 النواة الأولى "للإخوان". تم الترخيص للإخوان تحت اسم "جمعية الإخوان المسلمين" التي تخضع رسمياً لقانون "الجمعيات" المصري، الذي ينص على عدم تدخلها بالشؤون السياسية. وهكذا أصبح

عليه لكن الطلقات أخطأت الرئيس، وتابع خطابه. محاولة الاغتيال هذه كانت السبب الذي جعل عبد الناصر يبطش بالجماعة، ويحطمها محاولاً تصفيتها. ومنذ محاولة الاغتيال هذه حتى عام 1971، أطلق الإخوان على تلك الحقبة (المحنة الكبرى)، حتى أطلق السادات سراح المعتقلين.

تكرر هذا السيناريو عندما حاول الإخوان المسلمون اغتيال الرئيس حافظ الأسد في 26 حزيران عام 1980 في قصر الضيافة بدمشق، لكن الرئيس نجا بإعجوبة، وكانت ردة الفعل قوية، في تدمير، كما فعل عبد الناصر، لكن لا بد من ذكر مجزرة المدفعية التي تمت ليلة 16 حزيران 1979، هذه المجزرة التي هزت سورية من أقصاها إلى أقصاها (14).

وما كنت لأعود لذكر هذه الأحداث إلا للتذكير بالعنف، والإرهاب، وسفك الدم.

في كتابه (إسلام سياسي - إشكالية الرؤية) يوضح علم الدين عبد اللطيف معنى (الإسلام السياسي) متتبعا الحركات الدينية في الإسلام، وعودة الدين إلى السياسة، ويتوقف عند الإسلام والديمقراطية، ويختم في تطور الحركات الإسلامية. ولكن ما يهمنا في هذا المقام، هو (الإرهاب)، يقول في المقدمة: "ولا ينسى أحد من المتابعين تصريح مسؤول الأمن القومي الأميركي في أواخر سبعينيات القرن الماضي، حول مشروع أميركا في العقود المقبلة، في إذكاء الصراعات في منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامي عموماً، وأسماها بالحرف (صراع ما

دون الأيديولوجيا)، يستطرد علم الدين قائلاً: "إذن، إنه الصراع المباشر، وسيكون الصراع الديني فاتحته وفق منطق الأميركيان. لذلك، لم يكن مصادفة حدوث صراعات طائفية ودينية بعد ذلك بقليل، كانت أدواتها الحركات الدينية التي برزت مباشرة حاملة سلاحها، وأدوات تدمير لم ييخل عليها بها صاحب المشروع المعلن إياه. وطالت مظاهر الصراع في البلدان العربية والإسلامية، من المغرب إلى الجزائر ومصر والسعودية والعراق وفلسطين ولبنان وسورية، وإيران وباكستان وأفغانستان والهند وتايلاند وأندونيسيا والصومال وإريتريا ولاحقاً اليمن والسودان، وفي كل هذا، وطوال العقود التي تلت تصريح المسؤولين الأميركيين، كانت قضايا الإسلام السياسي سيدة الموقف في هذه الصراعات، ولن يغير في حقيقة المسألة كون أميركا، والغرب عموماً، حرّضت، وموّلت، ودربت، وشاركت التنظيمات الجهادية في بداية انطلاقها، ليس فقط لمواجهة السوفييت في أفغانستان في سبعينيات القرن الماضي، بل ربما لإبقائها رافعة للتدخل والتشويش وإثارة الصراعات، في منطقة يحتاجون فيها إليها" (15).

وأعود إلى الخطاب الديني، وسؤال مؤرق يطرح نفسه الآن، وهو سؤال الأمير شكيب أرسلان عام 1931: **لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟**

وأترك الجواب لكم.

استيقظت عندما بدأ "الحراك السلمي" من عدوى "الجحيم العربي"، لكن (الحراك السلمي)، لم يستمر أياماً قليلة، حتى بدأت المواجهات المسلحة، وبدأت الاتهامات من كل حذب وصوب تحمّل الدولة المسؤولية، في حين يؤكد مواطنون كثيرون فقدوا أولادهم، من الشرطة والعسكريين أنهم نزلوا إلى الساحات دون أي سلاح، لمدة شهور. وقد اعتدى عليهم الإرهابيون، واتهموا الجيش، وهذا ما ثبت بالدليل القاطع من اعترافات الإرهابيين.

9 - البعد التربوي:

قبل الوحدة العربية بين سورية ومصر 1958، كانت وزارة المعارف هي المسؤول والمشرف على التعليم في كافة مراحلها. في أثناء الوحدة تغير اسم الوزارة إلى وزارة (التربية والتعليم)، بعد 8 آذار، استقرت الوزارة على اسم (التربية). وإن كان لنا أن نفتخر على كثير من بلدان العالم، أن التعليم في القطر مجاني، وأن ميزانية (التربية) ميزانية ضخمة وهذا من المنجزات الحقيقية التي يجب أن لا تنسى، ولا تهمل. لكن الملاحظ، أنه منذ عقدين وربما أكثر، حصلت انزلاقات في العملية التربوية، منها الاستخفاف بانتقاء الكادر واختيار المعلمين، فسابقاً، وجيلنا يعرف أكثر من غيره، (هيبة المعلم) وهيبة المدرسة، واهتمام الكادر التعليمي بالطلاب، وإعطاءهم دروساً إضافية مجانية. كانت تسمى دروساً إضافية، الآن، انتشر التعليم الخاص، وصار من 60 - 80

سؤال ملح آخر: لماذا اليوم، لا يوجد إجرام، ولا يوجد إرهاب، ولا توجد عصابات مسلحة إلا في بلاد المسلمين؟!

من هو المسؤول؟ من هو المذنب؟ من هو الملام؟ وما العمل؟

أجل! شعبنا متدين بالفطرة، ولكن الدين شيء، والخطاب الديني شيء آخر. الدين معرفة الله، والله محبة، والدين يدعو إلى التسامح، والعيش المشترك، الدين حافظ للقيم والأخلاق والفضيلة، الدين لا يدعو للقتل والفتك، والسلب، والتدمير والتخريب.

لقد استغل الإسلام السياسي، سواء الوهابية منه، أو الإخوان ومن يدور في فلكهما الخطاب الديني، الذي اشتد عوده بعد إخفاق المشروع القومي العربي، وبعد هزيمة حزيران في عام 1967، وبعد حرب الإخوان المسلمين، في سورية 1979 - 1982، وبعد انحسار مبادئ الأممية، والمد الاشتراكي، وزوال الاتحاد السوفييتي، وضرب اليسار في الأقطار العربية، فوجد هذا (الإسلام السياسي) مرتعاً خصباً، فازداد بناء المساجد، ومعاهد تحفيظ القرآن، وعادت ثقافة الحجاب، والقبليات... وهنا، اشتد خطاب الظل الديني، الذي بدلاً من أن ينشر مبادئ الإسلام الحقيقية، صار يشحن بالتحريض، والتأليب، والحقن المذهبي والطائفي، والدعوة للجهاد، من هنا تعالت أصوات (الإسلام المعتدل)، في مواجهة التطرف، والتعصب، ومن ثم، تغلغت الوهابية كالنعاس في الرأس، وكالسم في الدسم. وتم انتظار اللحظة المناسبة، وفعلاً

لعبته، واستخدم هؤلاء وكانوا الحطب المشتعل. لكن بعد سنتين، انكشفت اللعبة. ولكن بعد أن بلغ الدم الزبي.

10 - المعارضة:

.. "جئت إلى هذه الدنيا كي لا أوافق"..
يقول مكسيم غوركي، وهو رفيق وصديق لينين وستالين، ومقولة غوركي هذه، يفترض أن تكون مقولة كل كاتب، وكأن غوركي ينطق باسم الكتاب جميعاً، وهو كان رئيس اتحاد الكتاب السوفييت.

نعم. جئت إلى هذه الدنيا كي لا أوافق. وقد قرأت هذا القول، وترجمت "كيف تعلمت الكتابة" للكاتب نفسه منذ أكثر من ثلاثين عاماً، ولطالما رددت هذا القول.

بمعنى من المعاني، أنا معارض. كل كاتب معارض، بطريقة ما، بأسلوب ما "ولكن معارض" لمن؟ و(لا أوافق) على ماذا؟

معارضة.. نعم معارضة، ولطالما قلت وشبّهت المعارضة، بالمرأة، نعم المعارضة الحقيقية هي امرأة، امرأة كريستالية، إن شئت. فلماذا ينظر واحدنا في المرأة مرات ومرات؟

فالمعارضة، ظاهرة قديمة. ظاهرة طبيعية، ظاهرة ضرورية. لا بل هي ضرورة، وحاجة ماسة.

ولكن أية معارضة؟

المعارضة الوطنية الحقيقية المتجذرة بتراب الوطن، كجذور السنديان. المعارضة التي تدافع عن حرية الوطن، وكرامة الوطن والمواطن. المعارضة التي تضع برنامجاً، ومنهج

بالمئة من المدرسين يعطون دروساً خصوصية، إما في بيوتهم، أو يذهبون إلى بيوت الطلاب. نتيجة إهمال وتردي التعليم في المدارس الرسمية. هذا أولاً. ثانياً: تم إهمال الأرياف، بشكل ملحوظ وملمس، مما سبّب في تسرب الطلاب في المرحلة الإعدادية، وهم لا يتقنون حرفة ولا مهنة، وحظهم في التعليم صفر. فوجدت الجهات صاحبة "الدعوة" و"التبشير" ضالتها في هذا الكم الهائل من الشباب، وهؤلاء كما يقولون، خامة بيضاء، وعجينة لينة. فتم احتواءهم، وغسل دماغهم، إلى أن تم احتلال عقولهم. واحتلال الأرض أسهل من احتلال العقل. لولا ذلك، من أين كنا نسمع بثقافة (الله أكبر)، التي صارت تبعث الرعب في نفوس المواطنين، لأنها ارتبطت بالصوت والصورة والفعل، بالقتل والذبح، من أين الجرأة، لطفل أن يقبض على الساطور ويذبح رجلاً، والباقي يتفرج ويهلل، ويصرخ (الله أكبر).

نعم، الدولة مسؤولة، والتربية مسؤولة، ومنظمة الطلائع مسؤولة، ومنظمة اتحاد الشبيبة مسؤولة. بصراحة: الجميع مسؤول.

الأمر الآخر الهام، هو ما سُمي (بالبيئة الحاضنة). ولا أريد التفصيل في هذا، لأن (البيئة الحاضنة) كانت المرتع الخصب لدعاة التعصب، والجهل، حيث تفشت الأمراض الاجتماعية، مما سهّل على شحنها، وحقنها، وشحذها، مستغلة الوضع الاجتماعي، من الفقر، وكثرة العيال، وقلة الموارد، والبطالة والعطالة. وهنا، تم اللعب بامتياز على الوتر الطائفي والمذهبي. ومن هنا، لعب (الدولار)

وكانوا عملاء لهم، فهم بصريح العبارة، ليسوا (معارضة) إنهم يدخلون خانة الخيانة الوطنية.

لقد صرخنا منذ البداية. هناك غلط. وهل يصحح الغلط بالغلط؟ نعم. هناك معارضة وطنية، ومعارضة غير وطنية، وأشخاص انتهازيون، انتهزوا الأحداث الدامية، وعرضوا "بطولاتهم"، وهم بالأصل نكرات، منهم من استقبل السفير الأمريكي، ومنهم من لجأ إليه. ومنهم من قبض حتى التخمة. جمعهم الحقد، والضعف، واللؤم وشعارهم كان وما زال: إسقاط الدولة، وتخريب الوطن وتدميره، والأمثلة كثيرة، والوثائق فاضحة، والبراهين أكثر من أن تحصى. لقد انطلت خديعة (الربيع العربي) على (بعضهم)، لكن الأكثرية لم تتطل عليه اللعبة، والخديعة، والبرهان الساطع: ما يجري الآن في ليبيا، وتونس، ومصر. ومن قبل العراق الذبيح.

السؤال اليوم، هل يمكن أن تكون معارضةً وطنياً، أو ثورياً وأنت في خندق واحد مع الإمبريالية الأمريكية، والعدو الصهيوني؟!

أترك الجواب لكم.

لقد فوّت بعض المعارضين، في رأيي - الفرصة الذهبية، عندما بدأ التصعيد، أقصد: عندما خرجت الأمور من أيدي السوريين، وانتقلت إلى جامعة الدول العربية التي باعت نفسها، وبدورها صعدت الموقف، ونقلت الأمر إلى مجلس الأمن المرتهن

عمل، المعارضة التي تضع مشروعا للمستقبل. على أسس ومبادئ واضحة. تضع البديل الأفضل. المعارضة الوطنية التي يكون رأيها وقرارها من رأسها. أما المعارضة المرتبطة بالأجنبي، وتأنمر بأوامره، وتتفذ مآربه، ليسمحوا لي، أنها تدخل في خانة العمالة، والعمالة تدخل في خانة الخيانة.

فالمسيح عليه السلام كان معارضاً. وسيد الأنبياء الرسول الأعظم محمد ﷺ كان معارضاً. وأبو ذر الغفاري كان معارضاً. ومحمد بن أبي بكر الصديق كان معارضاً. والقائمة تطول إذا ما ذكرت رموز المعارضة الحقيقية الوطنية الشريفة.

نعم، إن أحد وجوه الثقافة - معارضة.

فيما يخص الشأن السوري اليوم، وما يجري، وبعد سنتين وثلاثة شهور، انكشف الغطاء، وحصل الحق. وذاب الثلج، وظهر المرج. ولم يعد خافياً على كل بصر وبصيرة، أن (المعارضة السورية) هي معارضات بالجملة، والأصح القول، أن أشخاصاً وأفراداً معارضين. ولم تستطع هذه المعارضة أن تشكل سرباً فاعلاً في الشارع السوري. فالمعارضة، أو المعارضون الوطنيون تشبثوا بالأرض، وثبتوا في الوطن. وتمسكوا بمبادئهم، ولم يتاجروا بمظلوميتهم. وبرهنوا أن ملاحظاتهم، وانتقاداتهم، حتى شعاراتهم لم تكن ضد الوطن. بل هم مع الإصلاح والصالح، والحفاظ على الوطن وسيادة الوطن، هم، ضد الأجنبي، أما الذين كانوا وما زالوا يطالبون الحلف الأطلسي، ولجؤوا إلى الكيان الصهيوني الغاصب، وتعاونوا معه،

الفأس. لن يستطيع الفأس أن يؤذي إحداكن".

أرجو أن لا يفهم من حديثي، إلقاء اللوم على العامل الخارجي، فلول الثغرات الكثيرة، وربما الكبيرة، لما استطاع هؤلاء جميعاً، من الدخول إلى قلب المجتمع. لقد تم الاعتراف بالأخطاء وتراكم الأخطاء من أعلى المستويات في الدولة، وتم الاعتراف بالتقصير، والإهمال، وسوء استغلال السلطة إلخ. وما زلنا ننتظر بالإضافة إلى تغيير الدستور وحزم الإصلاحات، التي جرت، من تعددية الأحزاب، وحرية الرأي والتعبير، خطوات سريعة ملموسة وملحوظة على صعيد معاقبة الفاسدين والمفسدين، والجشعين الذين استغلوا الأوضاع الراهنة، فباتوا ينهشون لحم المواطن، فأصبح المواطن بين فكي ذئبين: ذئب الإرهاب، وذئب الجشع وغول الغلاء.

في حمى الصراع الحاصل على الأرض السورية، في الظل الثقيل للحرب العالمية على سورية، ترتفع أصوات: أين المثقفون؟ وأين دورهم؟ في الجواب أقول:

المثقفون السوريون موجودون. ومعنيون بكل ما يجري. يوجد تباين في الرأي. نعم. يوجد اختلاف في الرأي نعم. لكن المثقفين الحقيقيين يرفضون الأجنبي، ويرفضون العنف والإرهاب.

المثقفون موجودون وهم مطالبون بالقول والفعل، لأنهم خير من يقول، وخير من يفعل، وخير من يطالب.

المثقفون يعرفون ماذا يريدون، وهم خير من يحتج، لأنهم يدركون لماذا يحتجون،

بالأمريكان واليهود، ومن ثم إلى الجمعية العمومية. وانقسم العالم حول (ملف سورية).

سؤال آخر يطرح نفسه: هل يعقل أن علوج قطر والسعودية، والأمريكان والسلجوقيين الأتراك يريدون حرية في سورية وديمقراطية؟ وغيورين على المواطن السوري، أكثر من السوري؟

أترك الجواب لكم أيضاً.

نعم. نعرف أن تراكم الأخطاء السابقة، والسلبيات، والفساد، الذي صار (ثقافة)، كان من أهم القضايا، وفي أول سلم الأولويات، للدولة والحكومة، وهنا، لا يتسع المجال للتفصيل. ولكن بعد التصعيد المنقطع النظير، ودخول القطعان المهجية، من مختلف بلدان العالم، أصبح الوضع مختلفاً جداً. وحصل فرز وطني شاء من شاء وأبى من أبى.

المعارض المثقف العارف، يدرك أن الإمبريالية الأمريكية، والعدو الصهيوني، والاستعمار البريطاني والفرنسي لا يريدون إصلاحاً، ولا ديمقراطية، ولا حرية، وبالفهم الملآن، لا يناسبهم أن تكون سورية قوية، حرة، مستقلة، صاحبة سيادة، قرارها سوري. وليس مرتهاً بالأجنبي، وهي كانت وما زالت ترفع شعار فلسطين والمقاومة..

11 - خاتمة:

يقول الجاحظ:

"ارتعشت الشجيرات خوفاً، عندما سقط رأس فأس بينهن. فقالت كبيرتهن: إن لم تتطوع واحدة منكن، وتُحشر ذيلها في رأس

كنا وما زلنا وسنبقى مع حرية الرأي والتعبير، كنا وما زلنا وسنبقى نطالب بالصلاح والإصلاح، والديمقراطية، والحرية، والمواطنة الصحيحة، لكن، صدقوني، أن الأمر، وأن القضية، أبعد من ليبيا، وتونس، والقاهرة، ودمشق، صدقوني، أن القضية ليست بتبديل نظام بأسوأ، وليست بتبديل حكومة بأخرى، وليست ديمقراطية". القضية كلها، بكلمة:

إن كل ما جرى في البلدان التي طالها "الجحيم العربي"، وهذا ما أثبتته الأيام والوقائع، هو خدمة للكيان الغاصب، لتحطيم الطوق العربي المحيط بالكيان الصهيوني الغاصب. وجعله هشاً، خانعاً، خاضعاً، تابعاً، يتولاه أشباه رجال، كما في بلدان حراس النفط، لیتاح للعدو الصهيوني، أن يقيم إمبراطوريته التلمودية - اليهودية. وهذا ما أعلن عنه، وأخيراً:

كفانا خدمة للأعداء، كفانا خدمة للموت. قديماً، قالوا: "الدين لله، والوطن للجميع". وأنا أقول:

(الوطن للجميع، والجميع لله)

لأنهم يدركون أن الوطن في خطر، والوطن أمانة أغلى أمانة وأثمن أمانة وأعظم أمانة، وهي في أعناق الجميع دون استثناء.

ولأن المثقفين يعرفون معنى الحرية، هم الذين يفرقون بين الحرية والفوضى. ولأن المثقفين يعرفون معنى الصلاح والإصلاح هم الذين طالبوا به. ولأنهم يعرفون حجم الفساد، هم الذين حاربوه وفضحوه. وهم الذين يفرقون بين الصلاح وبين التخريب والتدمير والأرض اليباب.

يعرف المثقفون معنى الثورة، ويدركون أن الثائر فارس، والفارس حر، والحرّ شجاع، والشجاعة تقتضي الوفاء والمبدئية والأخلاق والفضيلة. ويعرفون أن الثائر لا يقتل طفلاً، ولا شيخاً، ولا أمناً، ولا أعزل.

الثائر لا يخرب مدرّسة، ولا يقصف جامعة، ولا يحرق مشفى، ولا يقطع شجرة، ولا يسرق القمح ويعطيه للعدو، ولا يحطم جسراً، ولا يعتدي على المسافرين في الطرقات.

أيها السادة! يا قارئ الكريم!

الهوامش:

- (1) محمد عابد الجابري. المسألة الثقافية في الوطن العربي منذ الخمسينيات مجلة: المستقبل العربي. عدد 346. 2007/. ص 6 - 7.
- (2) المصدر نفسه ص 9.
- (3) المصدر نفسه ص 9.
- (4) إعلان مكسيكو بشأن الثقافة.
- (5) الاستشراق - إدوارد سعيد. ص 70.
- (6) نظام التضليل العالمي: ترجمة غازي أبو عقل.
- (7) د. سليمان العسكري، مجلة العربي، ص 8.
- (8) صدام الحضارات، صموئيل هنتغتون. ص 63.
- (9) المتلاعبون بالعقول: هيربرت شيللر: - علم المعرفة - الكويت. 1999.
- (10) التلاعب بالوعي: سيرجي قرة - مورزا - ترجمة عياد عيد. وزارة الثقافة، دمشق - 2012.
- (11) - إسلام بلا مذاهب: مصطفى الشكعة.
- (12) الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية - المركز العربي للدراسات الإستراتيجية، الجزء الأول. ص 13.
- (13) المصدر نفسه ص 46.
- (14) المصدر نفسه ص 50.
- (15) علم الدين عبد اللطيف، إسلام سياسي. دار إرواد. 2011، ص 6 - 7.